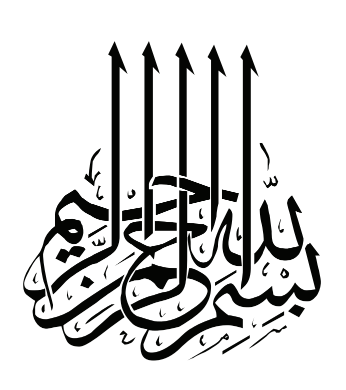


لماذا يطلب اللّه من البشر عبادته؟

الرد على شبهة غياب الحكمة عن أمر اللّه البشر أن يعبدوه

د. سامي عامري



الإهداء

إلى الذين يسألون، ليزدادوا علمًا..

ويتعلّمون ليزدادوا إيمانًا..

ويؤمنون ليحسنوا عملًا.

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال عن المعنى والقيمة

كنتُ قبل أيامٍ في عُمرةٍ التقيتُ فيها للمرّة الأولى بأخ كريم شَهِدَ معي لاحقًا لقاءً مع بعض الأفاضل في الحديث عن الإلحاد وشبهاته، ووجوب تقديم إجابات وافية تدفع استشكالات المنكرين للخالق. وقد فاجأني هذا الأخ لما عدنا إلى الفندق بقوله إنّه لا يستشعر لذّة العبادة، لأسباب منها أنّ سؤالًا لا يزال يراوده حتى قطع على نفسه صفوها وأخذ من روحه سكينتها، وهو: لماذا يطلب منّا الله ـ سبحانه ـ أن نعبده؟ فالنفس لا ترى في الصلوات والدعاء وغير ذلك من مظاهر العبادة فائدة يجتنيها الخالق!؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الشبهة، غير أنّي لم أَصِخْ إليها سمعي من قبل؛ ربّما لأنّ نفسي لم تكن متّجهة إلى النظر في قيمة الشبهات الإلحادية.

سافرت بعد ذلك إلى الكويت، وهناك التقيت أحد أفاضل الدعاة الذين يُرجع إليهم في العالم العربي في أمر الإلحاد وإشكالاته. ولمّا كنّا في الطريق إلى المطار آيبين إلى مساكننا، أخرج هذا الداعية هاتفه وأراني رسالة أرسلها إليه مشرف على إحدى المؤسسات الدعوية الخاصة بدراسة المذاهب الفكرية المصادمة للإسلام وعقيدته. وكانت رسالةً وردته من أحد الشباب المتشكك، وفيها سؤال عن الحكمة من طلب الربّ أن يعبده خلقُه، وداعي تميّز الربّ بالكبرياء دون غيره.

ولقد حفزني كلٌّ من تساؤل الأخ في الفندق، وحيرة صاحب الرسالة إلى الردّ في بيان الحكمة من طلب الربّ عبادته، والموقف من صفة الكبرياء الإلٰهي، وهل فيهما أيّ تعبير عن حاجة أو نقص؟

فكان الجواب. . .

الإشكال وأشكاله

يوحي ضجيج الاعتراضات الإلحادية الـموّارَةِ اليومَ بأنها كثيرة غزيرة، غير أنّ الناظر إليها عن كثب يدرك أنّها قليلة عددًا، ومكرّرة دون تجديد أصيلٍ في أغلبها، وأنّ حظّ عصرنا منها نزر يسير، يتركّز في مجال إقحام العلم بكثافة في الانتصار للإلحاد!

هذه الشبهات السيّارة محصورة نوعًا، فمنها ما تعلّق بحقيقة الوجود، كأزلية المادة، ومنها ما تعلّق بحقيقة الذات الإلٰهية في صفاتها وأفعالها، وهو موضوع أعقد من سابقه لأنّه يتعلّق بالحكم على ما وراء العالم المادي الذي يحتكر رؤيتنا الإدراكية المباشرة.

ومن الشبهات الإلحادية المطروحة والمتعلّقة بذات الله ـ سبحانه ـ التساؤل عن الحكمة من طلب الربِّ عبادتَهُ. وهو سؤال يبحث عن المعنى في فعلٍ لا يرتبط بمصلحةٍ كالتي

تُحرّك أفعال البشر. وعامة ما يَرِدُ به هذا السؤال في صيغة: لمَ يطلب منّا الله أن نعبده، وهو غنيٌّ عن العبادة؟ ما الذي يستفيده الخالق من صلواتٍ ودعواتٍ وصيام؟ أليس طلب العبادة علامة نقصٍ ودليل احتياج؟ ثمّ «يترقّى» السؤال مرتبة أخرى ليسأل عن الحكمة من خلق الإنسان أصالة. وإذا قيل للمتشكّك إنّ الإنسان خلق للعبادة، أجاب مستنكرًا: «وبم يستفيد الربّ من عبادةِ خلقِهِ له؟»، فَيَرُدُّنا معه إلى السؤال الأوّل: «وماذا يستفيد الله من عبادتنا له؟» وإذا ضاقت نفس السائل إلى آخر مداها، قال منفعلًا، ساخطًا: «لمِ لمْ يسألني الله إن كنت أريد أن أوجد؟».

في ظلال المعاني السابقة سنحوم لنناقش هذه الأسئلة الغاضبة بنفس هادئة ـ إن شاء الله ـ، مع بيان أنّ حديثنا متصل ضرورة ومحصور في مضمون السلسلة التي يقع فيها الكتاب، أي ردّ الشبه الإلحادية، ولا يرغب في أن يتجاوز ذلك إذا وفّى للجواب حقّه من الدلالة والبيان والتفصيل.

إشكالات في أصل الإشكال

إنّ فهمَ الإشكال الإلحادي حقَّ الفهم هو مقدمة الجواب، فإنّ صياغات الإشكالات الإلحادية تستر عن الوعي في أحيانٍ كثيرة مصدر هَلَكةِ الاعتراض، وهو ما يؤزّنا إلى التنقيب في لفظ الأسئلة وما بين السطور، وما وراء الألفاظ، وما خلف التصوّرات، فإنّ السؤال قد يكون في ذاته لسان الجواب.

ويقودنا النظر المتأني في جميع الشبهات الإلحادية إلى حقيقة كبرى، وهي أنّ اعتراضات الملاحدة تحمل في ذاتها دليل فسادها، ولذلك يحسن بالعاقل قبل أن يستجمع الأدلّة من الخارج لنقضها أن ينتبه إلى اضطرابها الداخلي، وليست الشبهة التي بين أيدينا بمنأى عن هذه الحقيقة المطّردة.

قصدُنا بالفساد الداخلي للشبهة أنّها لا تستقيم مع مقدماتها ولا مُضمراتها، فهي فاسدة في ذاتها لأنها تقوم على

مضمرات تصوريّة باطلة، كما أنّها تتناقض في دعاويها، فتسلّم للشيء وضدّه.

النظر النقدي في دعوى «حاجة» الله إلى عبادتنا وتعارض ذلك مع طبيعة الاستغناء الإلٰهي عن الحاجة، كاشف أنّ هذا الاعتراض فاسد من عدد من الأوجه، وأهمها ما يأتي:

أولًا: الاعتراض مبنيّ على أنسنة الإلٰه ومقاصده:

من أين ينبعث في النفس السؤال الحائر عن حاجة الربّ إلى أن يعبده الناس؟ ولماذا تشكّل قضية الفائدة المجتناة من الرب بعبادة الناس له أمرًا ملحًّا للمتشكّك؟

جواب السؤالين السابقين يكمن في حقيقة أنّ من يسأل عن الحاجة والمنفعة الذاتية في فعل الربّ لا ينطلق من حقيقة كونية كليّة، وإنّما أقام فهمه لذات الخالق على مبدأ أَنْسَنة الربّ، علم ذلك أم لم يعلم. وهي الظاهرة المعروفة في التاريخ البشري بـ«Anthropomorphism»، والتي فرّخت أفانها العقائد الوثنية؛ إذ النفس البشريّة نزّاعة إلى أنسنة كلّ شيء حولها، بما في ذلك الكائنات الحيّة والجمادات، مضفية عليها مشاعر الإنسان ونوازعه العقلية والعاطفية.

إنّ من يسأل عن «مصلحة» الإلٰه من عبادة الناس له، لم يفارق عقله التصوّر الوثني القديم عن الآلهة، تلك الآلهة

التي تجاري الإنسان رغائبه، فتطلب منه عن طمع، وتمنع عنه أثرة وحسدًا، وتثير نقع الحروب فيما بينها لتهيمن على السلطان الكوني وتحتكر خيرات الوجود. هي آلهة تحمل مشاعر البشر ونوازعهم، وتتحرّك بحوافزهم وأهوائهم.

وقد علق الفيلسوف اليوناني (Xenophanes) على التصوّر البشري للإله في زمانه، وإغراقه في الأنسنة، بقوله: إنّ الأحباش يرون إلٰههم أفطس الأنف، وهو عند الثراديين أزرق العينين أحمر الشعر... والأغرب من ذلك أنّ هذه الآلهة تأتي أشنع الأفعال المخالفة لسويّ الأخلاق؛ كالقتل والسرقة والنّهب كما يفعل عُبّادهم. وأضاف قائلًا: «لو كان للبقر والخيول والأسود أيد، وأمكنها الرسم، فسترسم الخيول أشكال الآلهة خيولًا، وسترسمها الأبقار بقرًا»[١].

ومن أشكال أَنْسنة الإلٰه هنا إدخال الذات الإلٰهية في قياس التمثيل أو الشمول، فتشمل الإنسان والإلٰه نفس المعاني بحقائقها، فيكون:

١ ـ فعل الإنسان وطلبه مردّهما ـ عادة ـ الحاجة.

٢ ـ كلّ فعلٍ وطلبٍ مردّه الحاجة.

٣ ـ الله ـ سبحانه ـ يفعل ويطلب.

---

(١) H. Diels and W. Kranz, eds., Die Fragmente der Vorsokratiker, Berlin: 1903, B, 16, 15.

٤ ـ فعل الله وطلبه مردّهما الحاجة.

يقول ابن تيمية: «وأعظم المطالب العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه. وهذا كله لا تنال خصائصه لا بقياس الشمول ولا بقياس التمثيل، فإن الله تعالى لا مثل له فيقاس به، ولا يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها. فلهذا كانت طريقة القرآن ـ وهي طريقة السلف والأئمة ـ أنهم لا يستعملون في الإلٰهيات قياس تمثيل وقياس شمولٍ تستوي أفراده، بل يستعملون من هذا وهذا قياس الأولى؛ فإن الله له المثل الأعلى»[1].

صفات الله سبحانه ـ إذن ـ لا تدخل في قياس التمثيل الذي هو «إلحاق فرع بأصل في حُكم جامع لعلّة»، لأنّ ذاته غير ذات البشر، وأعلى وأكمل من ذات البشر، فلا نجعل صفات الإنسان أصلًا نلحق به صفات الله ليشتركا في الأسماء والحقائق، وإنما ندرك صفات الله بقياس الأولى، بأن نُثبت لله كلّ خير ـ يليق به سبحانه ـ ثابتٌ للبشر، ولكن على صيغة أعظم وأتمّ، فللإنسان حياة، وهي صفة محمود، ولله حياة، لكنّ حياة الله أعظم. وللإنسان علم، وهي صفة محمودة، ولله علم، لكنّ علم الله كامل... وهكذا يَثبت لله

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ)، ٤/ ٣٥.

من الصفات التي للبشر ما يوافق كماله، ولكن على الصيغة الأكمل والأتمّ، **فالاشتراك في الأسماء، لا يلزم منه الاشتراك في الحقائق**.

إنّ هذا الذي يعترض على الإلٰه أنه يطلب العبادة إرضاء لحاجة أو نقص، إنما يقدّم اعتراضه لأنه مسكون بنزعة الأنسنة، فهو لا يسمح لعقله أن يتصوّر أنّ الطلب لا تحرّكه رغبة استكمال الحاجة وسد ثغرة، فالإنسان لا يتحرّك ـ عادة ـ للطلب إلّا ليُسَدَّ نقصًا ويُكَمِّل ناقصًا، ولذلك يظن المعترض أنّ هذا الأمر مطّرد في كلّ طلب، وفي كلّ عالم. وصواب الأمر هو أن نقول «**معرفة النوازع أو المقاصد من معرفة طباع الذات**»، وإذا كانت معرفتنا بطبيعة ذات الإنسان تسمح لنا أن نقول بعلم وجزم إنّ لطلب الشيءِ ـ عادة ـ أسبابَه التي تحمل فائدة للإنسان: كسبًا لخير أو دفعًا لشرّ، فإنّ مدّ هذه الدعوى إلى الذات الإلٰهية باطل لجهلنا جوهر هذه الذات، وما نعرفه عنها من العقل والنقل لا يسمح لنا أن نتوهّم في الفعل تكملة للذات.

ثانيًا: طلب الشيء لا يقتضي النقص عند طالبه:

يقوم اعتراض المخالف على الظنّ أنّ الطلبَ تعبير عن النقص ضرورةً. وليس ذلك كذلك، فإنّ الطلب ـ حتى في عالم الإنسان ـ قد لا يصدر عن نقص، فقد يطلب الطبيب

من المريض أن يفتح فمه ليعطيه الدواء الذي لا يستفيد منه غير المريض، وقد يطلب الغني من الفقير أن يمد يده ليناوله صدقة لا يستفيد منها غير الفقير. . . والأمر مطّرد في باب العبادة، فإنّ حب العبادة لا يلزم منه أن يكون المحب في نقص وحاجة؛ فإنّ الحب ليس محض حاجة إلى الزيادة.

إنّ طلب الشيء قد يكون إذن محضُ فضلٍ من الطالب الذي يريد لغيره تحقيق مصلحة وبلوغ رجاء، كما أنّه قد يكون لإقامة موازين العدل بين المطلوب منه وغيره، وقد يكون للتعليم والتوجيه، أو لغير ذلك، وهو ما يقتضي بطلان اللزوم المنطقي أن تكون الحاجة الذاتية مصدر الطلب، وبذلك يبطل الظنّ أنّ الألوهية تتعارض مع مطلق الطلب.

إنّ الطلب، هو الطلب، لا يدلّ على كمال أو نقص إلا أن يقترن بسياقات تدلّ على استدعاءِ حاجةٍ، فليس محضُ الطلب حجّة بشيء في ذاته.

والله سبحانه له الكمال في الذات والصفات، فلا يزيده عطاء الناس شيئًا، بل عطاء الناس المحمود ليس إلّا عطاء من الله سبحانه لهم أن وهبهم ملكة معرفة الخير وسَوقه للناس. قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٢، ٥٣].

ثالثًا: الاعتراض متعلق بصفات الله لا بوجوده:

يقول المعترض: إنّ طلب الله ـ سبحانه ـ من خلقه عبادته يخالف كمال الحكمة الإلٰهية؛ إذ يأمر بما لا فائدة منه! والناظر في هذا الاعتراض يرى أنه لا يبلغ في حقيقته درجة مناقشة وجود الذات الإلٰهية، وإنّما قصاراه أنه يناقش بعض صفات الإلٰه، وهو ما يعني أنّ هذه الشبهة لا تسعى في أصلها إلى إثبات الإلحاد، وإنّما هي تجادل في صفات الخالق «الخُلُقيّة»، فإنّ ثبوت وجود الخالق دلّت عليه براهين الخلق والتصميم...

وإذا كان واقع الشبهة على ما ذكرنا، فإنّه على المعترض أن يقرّ صراحة أنّ دعواه لا تملك أن تمدّ اعتراضها إلى وجود الذات الإلٰهية التي أخرجت الوجود من العدم، وبالتالي فليس لهذه الشبهة محلّ من الجدل الإلحادي، وإنّما هي محصورة في مناقشة صفات مخصوصة للإله لها علاقة بأمره خلقه بعبادته.

وعند الخوض في صفات الله، على العاقل أن يقرّ بقصور العقل البشري عن إدراك كثيرٍ من دقائق الصفات الإلٰهية وحقائقها؛ لأنه لا يملك حق قياس الغائب على الشاهد؛ إذ عالم المادة وحقائقه مرتبط بالصورة التي أرادها الله له، وهو عالم مخصوص القوانين، وليست عامة حقائقه إلا من باب الممكنات، وليست هي واجبة الوجود.

رابعًا: إخبار الربّ حبّه عبادةَ خلقهِ له لا يتعارض منطقيا مع حقيقة الربوبية:

من أفضل طرائق الرد على الشبه الإلحادية المتعلّقة بصفات الربّ سبحانه افتراض النقيض والنظر في استلزامه المحالات. وبالنظر في الشبهة التي نحن بصددها، لنا أن نقول: إنه لا يلزم عقلًا أن يكون خالق الكون بخالقيته غير راض ولا محبّ لأن يعبده خلقه، أي إنّه لا يوجد إلزام عقلي صرف لأن يكون الربّ الخالق غير محب أو طالب لأن يتوجّه الخلق له بالعبادة، فالجهة منفكة بين كمال القدرة على خلق الكون وطلب الخالق من المخلوقين أن يخضعوا له بجوارحهم، فلهذا، للخالق أن يطلب ذلك أو لا يطلب؛ إذ **الطلب متعلّق بحرية الإرادة لا بكمال القدرة.**

إنّ تصوّر المعترض لحقيقة الذات الإلٰهية الرافضة لمعنى العبودية ليس حقيقة بدهية، ولا أثرًا لاستنباطٍ عقلي مُحكم أو استقراء، وإنما هو رأيٌ ذوقيٌّ ناتج عن حقيقة رفض الناس للطلب من الآخرين عند القدرة على الاستغناء عنهم.

خامسًا: معرفتنا بحقيقة الذات الإلٰهية محدودة:

تقرّر القاعدة أنّ «الحكم على الشيء فرع عن تصوّره». فهل تصوّرت النفس الإنسانية حقيقة الذات الإلٰهية وكمالها،

لتؤسس على ذلك دعواها أنّ طلب العبادة يخالف ما يُفترض عقلًا أن تكون عليه هذه الذات العلية؟

إنّ عدّ طلبَ الربِّ من عباده عبادتَه أمرًا مخاصمًا لحقيقة الألوهية، يقتضي معرفة تفصيلية بطبيعة هذه الذات، وهو ما لم يتمّ على يد المعترضين، ولا غيرهم، لأنّ هذه الذات أبعد عن أوهام الإنسان وظنونه. ولـمّا لم تتحصّل هذه المعرفة الأوّلية فلا يمكن لعقل المعترض أن يجد حجّة لدعواه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]. قال ابن أبي زيد القيرواني: «لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكّرون. يعتبر المتفكّرون بآياته، ولا يتفكّرون في ماهية ذاته»[1][2] فمعرفة الذات العليّة مما لا تدركه العقول، فدونها سدد من الحجب مضروبة، والعاقل من وقف عند ما أدرك، وأناخ بعقله حيث لا مزيد.

---

(١) ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.، ص١٧.

(٢) رُوي عن الرسول ﷺ أنّه قال: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله**» (أخرجه أبو نعيم في الحلية، والأصبهاني في الترغيب والترهيب، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب). ولا يصحّ مرفوعًا إليه صلوات الله وسلامه عليه.

إنّ للإنسان أن يُدرك من هذا الوجود عظمة الموجد وكريم فضله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولكنّ ذلك غاية أمره ومبلغ سعيه إلى خبر السماء، ثم يتوقّف العقل عن التجسّس لعجزه عن التحسّس؛ فهو لا يدرك من الغيب إلا ما هدى إليه العالم المشهود.

وإذا كان العقل عاجزًا عن إدراك عامة صفات الخالق، وكان الخبر عن الذات والصفات من شأن خبر الوحي. وسكت الوحي عن بيان ماهية الصفات لما يبدو من عجز العقل عن الإحاطة بذلك. صار الجهل بكيفية الصفات حجّة لترك الاستدلال بماهية الذات والصفات للاعتراض على الحكمة الإلٰهية.

سادسًا: سؤال لا يسأله من يعرف نفسه:

من الذي تجرؤ نفسه على ارتقاء المرتقى الصعب بسؤال الخالق عن الحكمة من طلبِهِ؟!

يقول صاحب «الظلال»: «وليس لأحد من خلق الله أن يسأله ـ سبحانه ـ لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان. ليس لأحد من خلقه أن يسأله ـ سبحانه ـ ما دام أن أحدًا من خلقه ليس إلهًا، وليس لديه العلم، ولا إمكان

العلم ـ بالنظام الكلي لهذا الكون؛ ومقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود.

ولماذا؟ ـ في هذا المقام ـ **سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد**. . . المؤمن لا يسأله، لأنه أكثر أدبًا مع الله ـ الذي يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه ـ وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشري وحدوده، وأنه لم يُهيّأ للعمل في هذا المجال. . . والملحد الجاد لا يسأله؛ لأنه لا يعترف بالله ابتداءً، فإن هو اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه ـ سبحانه ـ ومقتضى ألوهيته، وأنه «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون»، لأنه وحده المهيمن العليم بما يفعل.

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع. لا هو مؤمن جاد، ولا هو ملحد جاد. . . وقد يسأله جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها. فالسبيل لتعليم هذا الجاهل. . . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها. . . حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن، أو يجحدها وينكرها فهو ملحد. . . وبهذا ينتهي الجدل. . . إلا أن يكون مِراء! والمسلم منهيٌّ عن المضيّ في الجدل حتى يكون مراء!»[1].

---

(١) سيد قطب، هذا الدين، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م، ط١٥، ص٨ ـ ٩.

أجوبة على أصل الإشكال

عِلمنا بالفساد الذاتي لاعتراض المعترض لا يمنعنا من أن نمدّ نحن اعتراضنا على هذا الاعتراض ببيان أنّه منتقض بأدلة من خارجه تبيّن أنه في شقاق حاد مع حقائق عقلية ومفاهيم عقدية صلبة. . .

أولًا: تصريح الوحي أنّ الله لا يأتي العبث:

قصور معرفتنا بطبيعة الذات الإلٰهية، وغياب الدليل القاطع على تعارض وجود الله وطلبه العبادة، حجة لأن نجعل طبيعة الذات الإلٰهية وعلاقتها بطلب العبادة مقصورة في أغلبها على نصوص الوحي، أو ما يُعتقد أنه وحي. والنظر في نصوص القرآن كاشفٌ تقريرَ الرسالة الخاتمة أنّ الله سبحانه لا يفعل ما هو عبث، وفي ذلك دلالة أنّ الله ـ سبحانه ـ يعلم ما قد ينسرب إلى عقول الخلق من أنّ ظواهر بعض الأمور قد توحي إلى بعض الناس أنها بلا حكمة، أو

أنّ ما فيها من حكمة لا يليق بمقام الربّ الخالق الكامل.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢، ٣].

وقال ـ تقدّس اسمه ـ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

والعقل وحده دال على عظمة الخالق بدلالة كمال الصنعة؛ وكمال الصنعة دالٌّ على كمال الحكمة، وكمال الحكمة نقيض العبث، فالكون بذلك دال أنّ الخالق لا يأتي في أفعاله بما لا حكمة من ورائه.

ولا يعني نفي العبث عن فعل الله ـ سبحانه ـ أنه لا يفعل إلّا لحكمة تعود إليه، وإنّما الصواب هو أنّه سبحانه يفعل لحكمةٍ تَعُود إليه، يحبّها ويرضاها، ويفعل لحكمةٍ تعود

على الخلق. وعلى العاقل أن يبصر حكمة الله سبحانه في هذين البابين.

ثانيًا: تصريح الوحي عدم حاجة الرب للعبادة:

تبدأ الشبهة التي يستعرضها المخالف بالاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾، للقول إنّ في خلق الإنسان لأجل العبادة دلالة على أنّه مخلوق لسدّ حاجة عند الربّ، وهو ما يصادم صِفَتَي الاستغناء والكمال الإلٰهيين. **وللأسف لا يُكمِل المعترض قراءة النص القرآني،** ربّما لجهله بتتمة الكلام في سياقه، ولو أتمّ لَعَلِمَ انتقاض دعواه في مقام النصّ المستدلّ به نفسه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

إنّ الله ـ سبحانه ـ لا يريد من عبادة الإنسان رزقًا ولا طُعمة، بل هو الرزّاق عميم العطاء للمحسن والمسيء.

وقد جاءت الآيات في استغناء الله عن الخلق في غير الآية السابقة، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: ٨].

إنّ الله لا يضرُّه كفرٌ كما لا ينفعه إيمانٌ، فهو مستغن عن طاعة العبد ومستعلٍ عن عصيانه، وإيمان العبد هو للعبد: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ [الإسراء: ٧]، وكفره عليه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، لا يمسّ من ذلك شيء ربَّ العالمين.

ويخبرنا الربّ سبحانه في حديث قدسي جليل بحقيقة قدر الطاعة والمعصية في مُلكه: «... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(١).

إنّ العبادة لا تنفع الربّ وإنّما هي لمصلحة العبد. قال قتادة: «إنَّ الله ـ سبحانه ـ لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه، ولا نهاهم عنه بخلًا منه، بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عمّا فيه فسادهم»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، (ح/ ٢٥٧٧).

(٢) ذكره ابن تيمية، قاعدة في المحبة، تحقيق: محمد رشاد سالم، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٧م، ص١٨٣.

وقال ابن رجب: «إن الله تعالى في نفسه غني حميد. لا حاجة له بطاعات العباد، ولا يعود نفعها إليه، وإنما هم ينتفعون بها. ولا يتضرر بمعاصيهم، وإنما هم يتضررون بها. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «**ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى، ولا يضرّ إلا نفسه، ولا يضرّ الله شيئًا**». قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١]. وقال حاكيًا عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨]. وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحج: ٣٧]. والمعنى أنه تعالى يحبّ من عباده أن يتّقوه ويطيعوه، كما أنه يكره منهم أن يعصوه، ولهذا **يفرح بتوبة التائبين أشدّ من فرح من ضلّت راحلته** التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أعيى، وأيس منها، واستسلم للموت، وأيس من الحياة، ثم غلبته عينه فنام، واستيقظ وهي قائمة عنده. **وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح**. هذا كله مع غناه عن طاعات عباده، وتوباتهم إليه، وأنّه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال

جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم، ودفع الضر عنهم. فهو **يحبّ من عباده أن يعرفوه، ويحبوه، ويخافوه، ويتقوه، ويطيعوه، ويتقربوا إليه**، ويحبّ أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره، وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده...

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنّ عبدًا أذنب ذنبًا.

فقال: «**يا رب إني فعلت ذنبًا فاغفر لي!**».

فقال الله: «**عَلِم عبدي أن له ربًا يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي!**»[1]...

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «**والله! لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»[2].

كان بعض أصحاب ذي النون يطوف ينادي: «آه أين قلبي؟! من وجد قلبي؟!».

فدخل يومًا بعض السّكك، فوجد صبيًّا يبكي. أمُّه تضربه. ثم أخرجته من الدار، وأغلقت الباب دونه. فجعل الصبي يلتفت يمينًا وشمالًا، لا يدري أين يذهب، ولا أين يقصد. فرجع إلى باب الدار، فجعل يبكي.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى يريدون أن يبدّلوا كلام الله، (ح/٧٠٦٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، (ح/٢٧٥٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، بَابُ رَحْمَةِ الْوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ (ح/٥٩٩٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ (ح/٧١٥٤).

ويقول: «يا أمّاه! من يفتح لي الباب إذا أغلقت بابك عني؟! ومن يدنيني إذا طردتيني؟! ومن الذي يدنيني إذا غضبت عليّ؟!».

فرحمته أمه، فنظرت من خلل الباب، فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه، متمعكًا في التراب، ففتحت الباب، وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبّله.

وتقول: «يا قرّة عيني! ويا عزيز نفسي! أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرّضت لما حلّ بك. لو كنت أطعتني لم تلقَ مني مكروهًا».

فتواجد الفتى، ثم صاح، وقال: «قد وجدت قلبي! قد وجدت قلبي!».

وتفكروا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فإنّ فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجؤون إليه ويعولون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره»[١].

إنّ الله سبحانه لا يتشفّى بعذاب الكافر غيظًا، ولا يستجلب بطاعة المطيع شيئًا. قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٨هـ، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.

بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ [النساء: ١٤٧]، فهو سبحانه شكور، يقبل اليسير ويعطي الجزيل.

ثالثًا: عبادة الله لأنه أهل لأن يُعبد:

ما هي الحقيقة النفسية والشعورية «للعبودية»؟

قال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها **غاية التذلل**»[1].

ويقول ابن القيم: «التعبد **آخر مراتب الحبّ**، يقال: عبّده الحبّ وتيّمه إذا ملكه، وذلك لمحبوبه»[2]. ويزيد بيانًا بقوله: «كمال العبودية تابع لكمال المحبة، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التامّ في كلّ وجه، الذي لا يعتريه توهّم نقص أصلًا، ومَن هذا شأنه فإن القلوب لا يكون شيء أحبّ إليها منه، ما دامت فطرها وعقولها سليمة، وإذا كانت أحبّ الأشياء إليها فلا محالة أن محبته توجب عبوديته وطاعته، وتتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له، والإنابة إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها، حتى لو فرض تجرّده عن

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، بيروت: دار القلم، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص٥٤٢.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ٣/٢٨.

الأمر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع، واستخلص القلب للمعبود الحق»[1].

إنّ العبادة ـ إذن ـ حقيقة نفسية تتبدّى في أعمال القلب والجوارح، وهي قائمة على أصلين، حبّ كامل وذلّ كامل، ومنشأ هذين من «مشاهدة المنّة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذلّ التام»[2]. فالعبادة إذن **حقيقة ملازمة لحقيقة ثنائية** الخالق والعبد، والمعطي والمعطَى، والمنعم والمتنعّم.

والعبادة بذلك فضل يُدرك بالبصيرة والجهد، وليس عطية مجانية أو حِملًا تضجّ منه أنفس العقلاء. والإنسان كلّما ترقّى في باب المعرفة بربّه وإدراك عظمته، بما هو به كائن، وفضله، بما هو له باذل، ازداد يقينًا بضرورة العبادة؛ إذ العبادة، إعلانٌ للحُبّ، ولا يمكن أن يعبد المرءُ ربّه حقّ العبادة إلّا أن يحبّه أولًا، وكلّما ارتقى في معراج الحبّ، اطمأنّ في محراب العبوديّة.

وفي سورة الفاتحة، لم يُذكر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] إلا بعد آيات الحمد

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، بيروت، د.ت.، ٢/٨٨.

(٢) ابن القيم، الوابل الصيب، تحقيق: سيد إبراهيم، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٩م، ص٨.

والتمجيد للربّ سبحانه، فالعبودية بذلك فرع عن المعرفة، والإقرار بحقيقة المعبود. فتأخّرُ تأكيد معنى العبادة في سورة الفاتحة التي هي دعاء ورجاء، ليس عفوًا من الأمر، وليس في القرآن شيء عشوائي، وإنّما في ذلك تأكيد أنّ العبادة ـ من وجه ما ـ نهاية الرحلة الشعوريّة بإخضاع الجوارح إلى الربّ بعد إخبات القلب إليه.

إنّ المسلم يعبد الله لأنه مأمور بذلك من خارجه ومدفوع إلى ذلك من داخله. هو مأمور بذلك بنصوص الشرع، وهو الإلزام الخارجي، كما أنه ملزم بذلك من داخله إقرارًا بكمال الخالق، حيث يستدعي نقصُه الإقرارَ بكمال خالقه. فنحن نعبد الله لأنه أهل لأن يُعبد، فيطاع ولا يُعصى، ويُمجّد، ويُسبّح، ويُحمد على نعمائه وآلائه. وكيف تغفل النفس عن ذكر حسن أسمائه وصفاتِه، وخيرُه ـ سبحانه ـ عميم، وعظمتُه تملأ النفس والكون؟!

وقد وقف الرسول ﷺ ـ وهو خير البشر ـ في صلاة الليل ـ أعظم أوقات العبادة والذكر ـ ليقول في سجوده ـ والسّجود أعظم هيئة لإعلان الخضوع والطاعة ـ، قائلًا: «**لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)].

(١) روى مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «فقدت رسول الله ﷺ من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللَّهُمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك، =

وتقول الملائكة التي تملأ كلّ موضع في السماء والأرض في سجود وإخبات، يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك»[1]. وذاك أنّها تعلم مقامها من مقام الله ـ جلّ وعلا ـ، فهي وإن كانت عابدة لا تفتر، وطائعة لا تعصي، إلّا أنّ مقام الألوهية جليل، لا يملك العبد أن يوفّيه حقّه الكامل من التقدير.

فالله سبحانه حقيق بالعبادة، **قبل الخلق، ودون الخلق،** لأنّه أهل لذاته لأن يكون قِبلة العبادة، وأن تكون صفاته عنوان العبادة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]. إنّ حمده نابع أولًا من حقيقة ذاته؛ فذاته حقيقة بأن تعبد، وإن لم يمسّ أفرادنا منها فضل، فكيف وقد جاءنا منها الخير وعمّتنا منها النعم؟!

إنّ حمده واجب لأنّ له الأمر في الدنيا، وله الأمر في الآخرة، فهو مالك الدنيا، وقيّومها، ومالك الآخرة ومن

= وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (ح/ ٤٨٦).

(١) قال رسول الله ﷺ: «**ما في السماوات السبع موضع قدم، ولا شبر، ولا كفّ إلّا وفيه ملَكٌ قائم، وملَكٌ راكع، أو ملَكٌ ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك، إلا أنّا لم نشرك بك شيئًا**». رواه الطبراني في الأوسط.

يقضي بالعدل فيها، ويجزي المحسن فيها بلا إقتار. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١].

وهذا الخلق المُعجب يستثير النفس الخاملة حتى تترك ذهولها عن بديع عالمها لتعبد ربّها. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، فخلق السماوات والأرض وما بينهما، وما في ذلك من إبانة عن القدرة والعلم، سائق للعبد كي يعرف ربّه، وإذا عرفه أحبّه، وإذا أحبّه، عبده بخضوع وذلّ لأنّه عرف مقام الخالق حقّ المعرفة، وعين المعرفّة عن نظر مبهر للعقل ومشبع للقلب، فالكون بهذا الجلال يشفّ عن خالق تتجاوز قدرته عقل المتفكّر.

والإنسان إذا عبد ربّه، نال شرف عبادةِ الذي لا يستحق غيره أن يعبد، فالخضوع للإله الأحد الحق شرف دونه عبادة المخلوقين الذين لا يملكون عطاء ولا هداية. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ [الزمر: ٢٩].

إنّ العبادة هي حقّ العظيم الذي تفرّد بالملك والجلال، حقّ لله سبحانه، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فقال: «**يا معاذ، أتدري ما حقّ الله على العباد، وما حقّ العباد على الله؟**».

قلت: الله ورسوله أعلم!

قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»[1].

إنّ الإنسان في عالم البشر يرى ضرورة الثناء على الأعمال الجليلة الرفيعة، فكيف ـ إذن ـ لو ارتقينا من عالم البشر إلى الحديث عن الذات العليّة، وخرجنا من أعمال البشر القاصرة إلى أعمال الذات الكاملة؟!

ثم، إذا كانت أعمال صالحي الخلق تستحق الثناء والتبجيل، فكيف بمن الأعمال الصالحة كلّها قبسٌ من صنع الفطرة التي فطر الناس عليها؟!

ومن يدّعي أنه لا يحمل دَينًا بمعروف لأحد من الناس فهو معصّب القلب بغروره، لا يحسن الشكر بعد العطيّة. فكيف ـ إذن ـ بمن لا يشكر من أسبغ عليه من النعم ما أدرك وما لم يُدرك، وأناخ أمامه اللذائذ يغترف منها حتى البشم؟!

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، (ح/ ٧٣٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، (ح/ ٣٠).

رابعًا: تمام القدرة والسلطان الإلٰهيين يتساوق مع حقيقة العبادة:

تنبع حقيقة الشبهة من تصوّر تعارض حقيقة الذات الإلٰهية مع حقيقة معنى العبادة، فهما في أصل الشبهة على طرفي نقيض، قد افترقا فلا يجتمعان. والعجب هنا هو أنّ واقع الأمر على نقيض ذلك، فإنّ حقيقة الذات الإلٰهية، والحقيقة الوجودية للكون وجوهر العبادة ومعناها، في تناغم كبير؛ إذ العبادة تعبير عن حال الانقياد والخضوع للخالق المبدع الذي أنشأ كلّ شيء من عدم، وخلق كلّ شيء فقدّره تقديرًا.

إنّ هذا الكون بأكمله ساجد في محراب الطاعة خاضع في محراب الناموس، فلا يخرج عن أمر الله القدري، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣]. وسجود الإنسان في محراب الطاعة الاختيارية، يحقّق له التناغم مع هذا الكون السائر قهرًا في طريق الخضوع للأمر الإلٰهي، ويقيه الصدام مع الكون المتحرّك معه.

والإنسان ملزم أن يعبد الله ـ سبحانه ـ ويصبّر النفس على ذلك، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ

وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ [مريم: ٦٥]. والاصطبار هو شدّة الصبر على الأمر الشاق، وبالمصابرة على عبادة الله ينجو الإنسان من عبادة غيره؛ فإنّ عبادة الله تقابل عبادة غيره ولا تقابل حريّة الإنسان، **فالإنسان منجذب بالعبادة أبدًا**، فإما أن يَعبد الله، أو يعبد غيره، كالأهواء والأشخاص والهيئات... ففي عبادة الله تحرّر كامل من عبادة الزيف والزور.

خامسًا: الإنسان محتاج إلى تحقيق العبادة ليحقق معرفته بذاته

الإنسان جزء من هذا الكون الفسيح ولبنة من بنائه العظيم. وحتى يحقق معرفته بذاته، فلا بدّ أن يعرف موقعه من هذا الكون، ومقامه فيه، أين يقع من الكون؟ وأين يقع الكون منه؟

وليبلغ الإنسان مرحلة الوعي الكوني بنفسه فهو يحتاج أن يعرف خالق الكون، ولن يحقّق معرفته بالخالق حتّى يَصِل نفسه به ويقترب منه اقترابَ مَنْ يبحث عن دفء خلاصه. وطريق هذا التواصل الداني هو التفكّر في الذات العليّة، واللهج بالتسبيح بعظمتها وجمالها، والسير في طريق رضاها؛ وذاك هو مفهوم العبادة.

إنّه ذاك **الحنين الدائم المهيمن على القلب إلى النبع**

الذي يروي عطش الروح ويروي غلّتها الدائمة في صحراء قائظة يتخلّلها السراب من كلّ جانب وتذروها الرياح كلّ حين فتعيدها بلقعًا وإن زهت ألوانها حينًا. إنّ **التديّن ـ الحقّ ـ هو الانجذاب العفوي إلى واحة الأنس** حيث تتخفّف النفس من وعث الغربة ملبيّة نداء الشوق إلى سجيّة الفطرة الأولى التي لا كدر فيها ولا غبش.

إنّ عبادة الله هي **عودةٌ إلى الذات**، وتآلفٌ معها بالخروج من بحر العلاقات الاجتماعية المتلاطمة إلى شاطئ السكون الهادئ بالإقبال على العظيم القريب الذي تستمتع النفس في ظلال قربه بهدهدة السكينة وراحة السكون اللذيذ.

وماذا يجد الآبق عن عبادة ربّه غير الاغتراب عن نفسه؛ إذ النفس متحرّكة بطاقة العبادة، فمن لم يعبد ربّه الخالق، عبد مَنْ هو دونه، كالمال والمنصب والشهوة المتأجّجة دائمًا والعطشى أبدًا. وفي خروج النفس إلى عالم الأهواء، يترك المرء ذاته في داخله وحيدة ويُقبل على جواذب الوجود الخارجي الذي يفصله عن دواخل قلبه وعقله.

سادسًا: الإنسان محتاج إلى العبادة ليحقق استواء ذاته:

عندما يغترب الإنسان عن ذاته، فهو يشطر بذلك كيانه إلى جسد بلا روح، وروح بلا جسد، ولن يملك سبيلًا إلى

الجمع بينهما، أو ردّهما إلى بعض في ألفة متناغمة حتى تكون لهما وجهة واحدة من مبدأ واحد.

وحتى يدرك الإنسان المبدأ والمنتهى لا بدّ له من معرفة حقيقة العبادة، ومظاهر نبضها. يقول ابن تيمية: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، والامانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»[1].

وهي «التذلل لله محبة وتعظيمًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه»[2].

ليست العبادات الإسلامية ـ إذن ـ مجرد رسوم باهتة

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ١٠/١٤٩.

(٢) ابن عثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع: فهد السليمان، الرياض: دار الوطن، ١٤١٣هـ، ١/٨٨.

وحركات غافلة، وإنّما هي **انفعالات حارة في القلب وأفعال سارية بالخير**، ويظهر فيها هذا الجانب ـ مثلًا ـ في الصلاة، قال ـ تعالى ـ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال ـ جلّ شأنه ـ في الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقال ـ سبحانه ـ في الحج: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]. وقال ـ جلّ وعلا ـ في الزكاة والصدقة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾ [التوبة: ١٠٣]. فهي عبادات مقرونة بالانتهاء عن المنكر، وإطعام الفقير، وتطهير المال والنفس من أدران الفساد، وغير ذلك من أبواب الخير والرحمة.

ونفوسنا بهذه العبادات الفائحة بالخير والإحسان إلى الذات والغير، تشهد منافع لها ولغيرها، وتحفظ للقلوب حياتها، وتنأى بنفسها عن ما يفتك بعافيتها، فعافيتها ـ في ختام المطاف ومبدئه ـ مردّها إلى تحقيق الاتصال بالربّ

الذي سوّاها. قال الرسول ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت**»[1]. فالعبادة حياة للقلب والروح، وبغيرها ينخلع المرء عن معنى الوجود ليغدو جثّة تدبّ على الأرض بغير إرادة واعية. وهو بذلك يؤسس لنفسه حياة شاقة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ٢٤].

والإنسان بالعبادة يجد غذاء روحه وغناها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لأَن أَقُولَ سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلّا الله والله أكبر أَحبُّ إِليَّ ممَّا طَلَعتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[2].

والعبادة ـ بذلك ـ ليست أحمالًا من الأوجاع يئنّ بها الظهر، وإنّما هي عند العارفين راحة القلب. قال الرازي: «من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها؛ وثقل عليه الاشتغال بغيرها»[3]. **فمن عرف الربّ حقّ المعرفة، وفقه العبادة حقّ الفقه، استمتع بالعبادة ولم يمتنع عنها، واستقوى بها ولم يستثقلها.**

إنّ القلب الصحيح الصاحي يدرك أنّ العبادة ترفع العلّة وتشدّ الصلب عند خشية الانكسار وتثبّت الرجل عند خوف

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، بَابُ فَضْلِ ذِكْرِ اللهِ ﷻ، (ح/٦٤٠٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (ح/٤٩٦٨).

(٣) الرازي، التفسير الكبير، تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

الزلّة. يقول الإمام ابن رجب: «قال الحسنُ لرجلٍ: داوِ قلبكَ! فإنَّ حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهم». يعني: أنَّ مرادَهُ منهُم ومطلوبَهُ صلاحُ قلوبِهِم، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ، وعظمتُه، ومحبّتهُ، وخشيتُهُ، ومهابتُه، ورجاؤه، والتوكلُ عليه، وتمتلئ مِنْ ذلك، وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ، وهو معنى «لا الإلٰه إلا اللهُ»، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى يكونَ إلهُها الذي تَألهُه وتعرفُه، وتحبه، وتخشاه، هو اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولو كانَ في السماواتِ والأرضِ إلٰهٌ يُؤَله سِوى اللهِ، لفسدتْ بذلكَ السماواتُ والأرضُ، كما قالَ تعالَى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فعلم بذلكَ أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ معًا حتى تكون حركاتُ أهلِهَا كلها للهِ، وحركاتُ الجسدِ تابعةً لحركةِ القلبِ وإرادته، فإن كانتْ حركتُه وإرادتُه للهِ وحدَه، فقدْ صَلحَ وصلحتْ حركاتُ الجسدِ كلها، وإنْ كانتْ حركةُ القلبِ وإرادتُهُ لغيرِ اللهِ تعالَى، فسدَ، وفسدتْ حركاتُ الجسدِ بحسبِ فسادِ حركةِ القلبِ»[١].

إنّ الربّ ـ سبحانه ـ متحققٌ بصفات الألوهية ولو لم يعبده البشر، أمّا البشر فبدون العبادة في تيه، وعلّة، ولا تستقيم نفوسهم على صراط العافية حتى تخشع قلوبهم في مراكع العبادة.

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص٧٥.

سابعًا: العبادة مادة الاختبار:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

لقد خلق الله ـ سبحانه ـ الإنس لعبادته، وأنزل لذلك الكتب والرسل. وخلق الخلق على جِبِلّة قاضية باختلاف الميول والأفكار، وأن يرقى الصالح في المعارج ويتطوّح الطالح في المهاوي، وكان الاختلاف بهذه الجبلة التي أرادها. وفي أثناء هذا الاختلاف، يحقّق فريق معنى العبادة فينجو، ويُدبِر فريق عنها فيهلك. قال الزمخشري: إنّ الله ـ سبحانه ـ قد مكّن «من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا، فلذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناسًا هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره»[(١)].

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت: دار المعرفة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، ص٥٠٢.

وإذا لم يكن هناك اختبار في الصبر على العبادة، وتحمّل ما كان منها شاقًا على النفس، ومعطِّلًا لأُنس الناس بالراحة والهمود، فسيستوي عندها المجدُّ والمرتخي الكسول. إنّ العبادة هي مقياس الأعمال، والميزان الذي يتفاضل فيه الناس.

وهنا نسأل في عجب: ما هي المادة الأفضل للاختبار إن لم تكن العبادة؟! **إنّ العبادة «امتحان» و«جزاء»، وبذلك تحمل في ذاتها حوافز دفع النفس للمصابرة والمقاومة،** ولو أنّ مادة الامتحان كانت بلا معنى عميق أو جدير بالاهتمام، كرفع صخرة من أدنى وادٍ إلى سفح جبل، ثم معاودة رفعها إذا هوت، لكانت النفس تكسل وتضجّ من الإملال الفارغ، وتجدُ في هذا الاختبار مادة للأذى الصرف والوجع المبرّأ من الراحة، ولذلك كانت العبادة **بطبيعتها الشائقة ولذاذتها الدفينة عطيّة في ثوب محنة،** وفوزًا في صورة مكابدة.

بإمكاننا أن نصوغ هذا المعنى بقولنا إنّ البشر قد خُلقوا في هذه الدنيا ليُمتحنوا في باب الطاعة، والعقل يقضي أنّه لا يمكن حصر أنواع امتحان الطاعة، فمنها ما يكون شاقًا بلا رحمة، ومنها ما يكون مفرّغًا من القيمة الذاتية، بلا معنى، ومنها ما يحقّق بذاته للإنسان الرحمة ويمنحه المعنى، وتلك ـ الأخيرة ـ هي «العبادة» الإسلامية التي يجد في مشقتها العاقل معاني الرحمة، كما تمنحه القدرة على أن يسلك في هذه

الدنيا سبل العمل برِجْلٍ ثابتة في الأرض وعين متطلّعة إلى السماء.

ثامنًا: بالعبادة يعرف العبدُ قدْرَه:

يحتاج العبد في قوله وفعله ومسلكه أن يتذكّر دائمًا أنّه عبد، خُلق لغاية، وزُرع في الأرض لسبب؛ فإنّ غَفْلَتَهُ عن حقيقة نفسه أعظم زلاته. وهو بمعرفته قدر ذاته يستطيع أن يدرك حقيقة العالم بأبعاده الحقيقية، وأن يحسن بذلك تقدير نفسه وتقدير ما حوله.

وقد كان الرسول ﷺ كثير الاستذكار في عبادته بأنواعها، لحقيقة مقام العبودية ولوازمه وحاجاته. فهو ﷺ القائل: «**سَيِّدُ الاسْتِغْفَار** اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِك عَلَيَّ وأَبوءُ بِذَنْبِي فاغْفِرْ لي فإِنَّه لَا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وارْحَمْنِي فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[١].

وكان ﷺ إذا أَوى إِلى فراشه قال: «**الْحَمْدُ اللهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا، وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ لَهُ وَلا مُؤْوِيَ**»[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، (ح/٥٩٤٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (ح/٢٧١٥).

إنّ الإنسان الذي يعمل صالحًا في هذه الحياة بإعانة المحتاج وكفّ يد الظلم عن الضعفاء، دون أن يربط فعله بمفهوم الطاعة للخالق، لا يحقق معنى الاعتراف بموقعه من الوجود، فهو شبيه بحال رجل يدخل بيتَ عظيمٍ من أصحاب المال والسلطان ـ ولله المثل الأعلى ـ، ثم هو يجلس على كرسي وثير دون أن يصيبه بأذى أو بلى، ثم يُسْلِم نفسه إلى نومة طويلة بعد أن يستلقي على فراش وثير في غرفة النوم. ولما يقدُم صاحب البيت، ويعجب من وقاحته أنه دخل البيت بلا استئذان، واستعمل الكرسي والسرير بلا استحلال، يجيبه الزائر أنه لم يغير شيئًا من المكان، بل حافظ على نظافته! فهل تبرأ ذمّة الزائر بذلك؟!

إنّ هذا الزائر لم يعترف لصاحب المكان بالفضل، ولا أقرّ له بالسلطان على بيته الفخم، وكذلك يفعل من يصنع الخير في الدنيا دون أن يقرّ لصاحب الكون بالفضل والسلطان؛ فضل عطيّة الحياة، وتوافر النِعَم، واستعذاب طعومها، فهو يدخل هذا العالم زائرًا، ويخترف من ثمراته الدانية دون أن يرفع يد الدعاء ممتنًا شاكرًا.

تاسعًا: الله يحبّ أن يكون بينه وبين عبده حديث وطلب:

العبادة في الفهم الشعبي المادي، حركة صاعدة من الأرض بلا توقّف، ودون صدى، ولذلك تستحثّ المعترض أن يسأل: «لماذا يطلب الله منّا أن نعبده؟!».

يخبرنا الشرع ـ في المقابل ـ أنّ روح العبادة مناجاة العبد ربّه، وتقرّبه منه، ومقابلة ذلك ببذل الربّ لخلقه الرحمة والودّ. فهي إذن علاقة تقابلية، وتواصل متّصل.

قال الله ـ سبحانه ـ في الحديث القدسي: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: «**حمدني عبدي**».

وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: «**أثنى عليّ عبدي**».

وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

قال: «**مجّدني عبدي**». وقال مرة: «**فوّض إلي عبدي**».

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

قال: «**هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**».

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

قال: «**هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»(١).

وفي رواية: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ (ح/٩٠٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ (ح/٩٠٦).

وهكذا هي الصلاة التي تتكرّر في اليوم أكثر من مرّة. وفي كلّ مرّة تُؤدّى بقلب يقظ، يكون الربّ ـ سبحانه ـ سامعًا سمع رضا ومحبّة، ومعطيًا عطاءَ الكريم الذي لا يصيبه الإقتار.

والمسلم في كلّ حاله قريب من الربّ، يتّصل به أنّى شاء وحيث شاء، فهو ـ سبحانه ـ القائل: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

وفي «الذكر» و«التقرّب» بين العبد والربّ تأكيد لعمق مفهوم العبادة، وأنّها ليست خضوعًا سلبيًّا، باردًا، قهريًّا، وإنّما هي تواصل واتّصال؛ فالربّ ـ سبحانه ـ يحبّ اتصالك به، وهو الغنيّ عنك، بل حبّه لذكرك له أعظم من حبّك لذكرك له، فهو ـ سبحانه ـ يتقرّب إليك على سبيل أعظم من تقرّبك منه، ويأتيك بطريق أسرع من إسراعك إليه، جلّ وعلا.

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، (ح/ ٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، (ح/ ٦٩٨١).

عاشرًا: العبادة طريق للتميز لاستحقاق الجزاء والرفعة:

الحياة الحقّة رِحلَةٌ لغايةٍ، وحياة الملحد عبثٌ صرفٌ يُعبّر عنه الفيلسوف الملحد (كونتن سميث) (Quentin Smith) بقوله: «إنّنا جئنا من لا شيء، بلا شيء، لأجل لا شيء»(١)!

وإنّ من أعظم أوجه الحكمة السعي إلى غايةٍ محمودة بجهد وجدّ، وبذلُ غاية الوسع لتحقيق الرجاء.

وإذا قيل إنّ غاية سعي العبد في هذه الدنيا تحقيق الفوز في امتحان الدنيا بالنجاة من النار، ودخول الجنة، والتنعّم في أعلى درجاتها، فإنّ ذلك يقتضي ـ عادة ـ أنْ يكون لاستحقاق الجزاء والتميّز في العطاء والمقام مقابل، وأن يكون المقابل مما يتفاوت فيه الناس تبعًا لتفاضل نيّاتهم وجهودهم.

والله ـ سبحانه ـ قد خلق الإنسان ليرحمه ويرفع منزلته إذا استقام على طريقه والتزم صراطه الذي هدى إلى معالمه وحذّر من استدباره. وهذا الخلق للرحمة لا للنكاية. والله ـ سبحانه ـ يحبّ لعباده أن يهتدوا، ولكنه ـ سبحانه ـ لا يلزمهم طريق الهداية إذا اختاروا طريق الغواية. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

(١) William Craig and Quentin Smith, Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology (New York: Oxford University Press, 1993), p.135.

وعبادة الله ـ سبحانه ـ بمجموع أشكالها، طريق ممهّدٌ للنعيم المقيم، واللّذة التي لا تفتر حلاوتها ولا تجفّ نداوتها. وقد دلّت الأحاديث على أنّ الله ـ سبحانه ـ يجازي بعميم الفضل والنعم قليل العمل، بما يسفر عن إحدى غايات الخلق، وهي تنعيم المطيعين وإمتاعهم.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «**مَنْ قال: سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ في يوم مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاه وإِنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[1]. وقال ﷺ: «**أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسَبْ في كُلِّ يَوْم أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ من جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسَبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قال: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَتُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ أَو تُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**»[2]. فالمرءُ يورَث المغفرة العميمة التي تمحو الذنب الغزير، ويكسب الحسنات الرفيعات، بكلمات قليلات تُقال في لحظات.

وليست المسألة هنا مجازاةً بما يوافق حجم البذل والتعب، وإنّما فتحٌ لباب العطاء بأدنى سبب، فالله يطلب من العبد القليل اليسير، مما لا يبلغ وزن قطمير، ليمنحه الكثير الغزير، فأينّ الظلم؟ ولِمَ النّكير؟!

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التبيسح، (ح/ ٦٤٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ (ح/ ٧٠٢٧).

الحادي عشر: في الاستجارة طلب للعون من العبد، ووعد بالنصرة من الرب:

من أعظم أنواع العبادة طلب العون من المعبود، والاستجارة به في الملمّات وعند تحرّج الحاجات، وقد جاء الخبر إنَّ «الدعاء هو العبادة»[1]، فهو مظهرها الأكبر، وهو المعبّر في كلّ دين عن حقيقة المعبود، ومقامه عند عابديه.

والله سبحانه طلب من عباده أن يدعوه، وهدّد مَنْ استكبر منهم عن ذلك بالعذاب الأليم، رغم أنّ الدعاء مقام طلب مِن العبد، ومَنٍّ من الربّ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، وذلك أنّ المظهر الأكبر للعبادة في كلّ الأمم المشركة هو التوجّه للأصنام والمقبورين وغير ذلك من المعبودات بطلب المال والذريّة والغوث والغيث... ثم تغيب الحاجة إلى الآلهة في وقت الرخاء، فكان الأمرُ بدعاء الربّ، أمرًا بقصر الطلب على الربّ وترك الاستغاثة بالمخلوقين، بشرًا كانوا أم حجرًا أم غير ذلك.

إنّ العبادة طريق مباشر وناجع ليطلب العبد من ربّه ما شاء، متى شاء. والناظر في الدعاء النبوي يلحظ أنّه مفعم

(١) رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب الدعاء، (ح/ ١٤٨١)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ، (ح/ ٣٥٥٥)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، (ح/ ٣٩٦٠).

بالاستجارة وطلب العون والنصرة والتوفيق. فمن السُّنَّة أن يقول المرء إذا أوى إلى فراشه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَواتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ والْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وأَنْتَ الْبَاطِنِ فليس دُونَكَ شَيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**»[(١)].

وكان ﷺ يأمر أصحابه إذا أسلموا أنفسهم إلى النوم أن يقولوا: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[(٢)].

وكان يأمر أصحابه بقراءة المعوّذتين دبر كلّ صلاة[(٣)]، وفي المعوذتين تمام الاستجارة بالربّ العليم القدير الرحيم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ وَأَخْذِ الْمَضْجَعِ، (ح/ ٧٠٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، بَابُ فَضْلِ مَنْ بَاتَ عَلَى الْوُضُوءِ، (ح/ ٢٤٧)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ وَأَخْذِ الْمَضْجَعِ، (ح/ ٧٠٥٧).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الوتر، بَابٌ فِي الِاسْتِغْفَارِ، (ح/ ١٥٢٥)، وأحمد (ح/ ٤/ ١٥٥).

والسجود موضع تعظيم الربّ وطلب الحاجات، و«أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد»، كما في الحديث[1]. وهيئة السجود هي أبلغ هيئات التذلل، ولذلك كان العبد فيها أقرب إلى الإجابة.

فالعبادة فاعلة في طلب العون، لجلب نعمة أو دفع نقمة، وليست محض صورة بلا حركة ولا أثر.

الثاني عشر: في العبادة تجديد لعقد الإيمان:

في التجاء النفس للعبادة والمداومة على ذلك ـ سواء أكانت العبادة الشاملة أم النُسكية ـ تجديد للانتماء وإنعاش للولاء لعقيدة التوحيد، وتوثيق لصلة الروح بغاية الوجود الكبرى، فإنّ النفس إذا استسلمت لدفق الحياة، وركنت إلى مطالب الدنيا الدنيئة، غفلت عن وجهتها الأصلية، ورضيت بالمطالب اللاهثة للأيام المتعاقبة.

والناظر في سيرة الرسول ﷺ يلحظ أنّه كان كثير الذكر والدعاء بالقول الذي يجدّد في القلب عقيدة التوحيد ومعاني الحبّ والتوكّل والرجاء في كلّ حين وحال؛ في الحركة والسكون، والقوّة والضعف، والجماعة والوحشة، ومن ذلك أنّه ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلَاةِ يقول: «**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَواتِ والأَرْضَ حَنيفًا وَما أَنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي**

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، (ح/١١١١).

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أنت رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي واعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا فإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، واهْدِنِي لأَحْسَنَ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَها لَا يَصْرِفُ عَني سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ والْخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنا بِكَ وإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١).

وكان ﷺ يقول إِذَا قامَ إِلى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، والْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ومَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. أَنْتَ إِلٰهي لَا إِلٰه إِلَّا أَنتَ»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَاب الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ، (ح/١٢٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التهجد، بَابُ التَّهَجُّدِ بِاللَّيْلِ، (ح/١١٢٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ =

وكان ﷺ إِذَا رَفعَ رَأْسَهُ منَ الرُّكوع يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَواتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْد. أَهْلَ الثَّنَاءِ والْمَجْدِ أَحَقُّ ما قَالَ الْعَبْدُ وَكلُّنا لَكَ عَبْدٌ. اللَّهُمَّ لا مانعَ لما أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِي لما مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»[(١)].

هذا هو فعل خير البشر، وأعظمهم تعظيمًا لله، وفي فعله ﷺ بيان أنّ القلب لا يستغني عن تجديد البيعة كلّ حين؛ فإنّ التوحيد المتضمّن للولاء المطلق الخالص للربّ، والبراءة التامة من القرناء والأنداد، ضرورة وفريضة لمن أراد أن يتابع المسير على درب الإيمان، ولذلك كانت العبادة التي تتضمّن ضرورةَ استحضار معاني العبوديّة زادًا في طريق تثبيت القلب والفكرة والخاطرة على نهج الطاعة.

الثالث عشر: في العبادة مدافعة للغفلة والذهول عن حقيقة الإيمان بالله:

تتميّز العبادة النُّسُكية الإسلامية بربطها القلب بالربّ على مدار اليوم. وإذا كان النصارى يستذكرون ربّهم وغاية

= مَا لَمْ يَعْمَلْ، (ح/ ٧٠٧٤).

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، (ح/ ٥٩٧١)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب اعْتِدَالِ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَتَخْفِيفِهَا فِي تَمَامٍ (ح/ ١٠٨٦).

خلقهم كلّ يوم أحد في جو طقوسي قصير سريع الزوال، فإنّ المسلم يستذكر ربّه في نسكه على مدار اليوم من خلال الصلوات المتتالية، وما يسبقها من استعداد بالوضوء وما يعقبها من نوافل صلاة وذكر. وهو يصوم شهرًا كاملًا كلّ سنة، ويختم القرآن كلّ فترة من الزمن، ويحج كلّ سنة إذا شاء، ويعتمر متى شاء، فيبقى بذلك قلبه معلقًا بمعاني الخلق، متفكرًا في أصل علاقته بالخالق.

وقد جاء الأمر بدوام العبادة النُّسُكية وغيرها، والثناء عليها في القرآن كثيرًا. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى ـ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**من قَالَ حينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا**

أَصْبَحَ بي مِنْ نِعْمَة أَو بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ؛ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ. وَمَنْ قَال مثل ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ»[1].

وكان ﷺ إذا أَراد أَن ينام قال: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وأَحْيَا**». **وإذا استيقظ من منامه قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»**[2].

وكان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من اللَّيْل قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي وأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»**[3].

وكان ﷺ يُعَلِّمُ أَصحابه: «**إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ المصير. وَإِذَا أَمْسى فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بك أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وإِلَيْكَ النشور»**[4].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، (ح/ ٥٠٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، بَابُ وَضْعِ الْيَدِ الْيُمْنَى تَحْتَ الْخَدِّ الأَيْمَنِ، (ح/ ٦٣١٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ وَأَخْذِ الْمَضْجَعِ، (ح/ ٧٠٦٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، (ح/ ٥٠٦٣).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، بَابُ مَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى =

وكَانَ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصلَاةِ قال: «**لا إِلٰهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لما أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا رَادَّ لما قَضَيْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»(١).

وكانَ ﷺ يقول دُبر كلِّ صلاةٍ حين يسَلِّمُ: «**لا إِلٰهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ على كلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، لَا إِلٰهَ إِلَّا الله، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ. لا إِلٰه إِلَّا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**»(٢).

إنّ القلب متقلّب، سريعًا ما تغشاه غاشية النسيان، وتحفّه سحب الغفلة، فإذا هو راكد أو مكفهرّ، ولذلك فإنّ عبادة الذكر تبقيه وضيئًا صقيلًا، فإذا استيقظ المرء من غفلة النوم ذكر الله، فذهبت ظلمة النوم، وإذا صلّى الفجر انقشعت غفلة الصبح، وإذا ذكر الله وهو خارج من بيته، ذهبت غفلة معافسة دنيا الناس، وإذا صلّى الضحى جدّد صحوة الفجر،

= (ح/ ٣٧١٩)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ (ح/ ٥٠٧٠).

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله، (ح/ ٦٢٤١)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (ح/ ٤٧٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، باب اسْتِحْبَابِ الذِّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَبَيَان صِفَتِهِ (ح/ ١٣٧١).

ثم إذا انتصف النهار وكانت النفس مستغرقة في شؤون الدنيا، جلّت صلاة الظهر النفس وردّتها إلى صفائها الأوّل، فإذا جاء وقت العصر، وتجددت في النفس دواعي الغفلة، تحرّك في القلب حنينه الأوّل إلى ربّه، وإذا حان أوان الأوبة إلى البيت عند غروب الشمس، أوى المرء إلى الصلاة يهدّئ بها روع نفسه، ثم إذا أقبل وقت النوم، صلّى قبل أن يُقفل صفحة صحوه.

هكذا هي العبادة في أدنى نشاطها، ذكر وتذكير ومذاكرة، واغتسال من أدران الغفلة، ومدافعة لخَبثِ التيه، وهي بذلك تحفظ للقلب حياته ورونقه، وتبقيه عطِرًا بالذكر الجميل.

إنّ العبادة تحفظ الإنسان من أن يغترب عن نفسه في هذا الوجود الصاخب بالضجيج، فهي تبقي للنفس حظّها من الشعور بذاتيّتها؛ إذ تبقي لها حظّ الانعزال عن مُوار الحياة للتزوّد بالحياة من مالك الكون.

الرابع عشر: عبادة الرب لتحقيق الانتظام الطبيعي:

الكون في التصوّر الإسلامي وحدة متناسقة، متناغمة، من الأشياء والقوانين، والكلّ خاضع بالطاعة القهرية لقوانين المادة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ

وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج: ١٨]. فالكل خاضع خضوع قهر لا يملك فكّ النفس عنه.

ومع هذا الخضوع القهري يخبرنا الله ـ سبحانه ـ أنه سخّر الكون للإنسان: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾ [النحل: ١٠ ـ ١٤].

وهذه الحيوانات مسخرةٌ بكل شيء فيها لنا، لحمها وجلدها وجهدها: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

فهذا الوجود مسخّر للإنسان بلا فضل للإنسان ولا

استحقاق، وإنما ليحقق الإنسان الطاعة والعبادة، فيكتمل بذلك بناء النظام الكوني من ضئيل الذرة إلى عظيم المجرّة.

إنّ **حركة الإنسان الطيّعة التي تتوّجه مع أمر الله ومشيئته، تتوافق مع حركة الكون الطيّعة لأمر الله ومشيئته،** فإذا تحرّك الكون جبرًا لأمر الله وتحرّك الإنسان طوعًا لأمر الله، تحقق التآلف بين أجزاء الوجود، ووَجد الإنسان في وجوده معنى الاستقامة وخرج عن مفسدة النشوز والمغالبة للسيّر الطيّع للأشياء.

الكبرياء الإلهي واعتراضات المخالف

قد يسأل المعترض قائلا: أليس في طلب الربّ أن يُعبد نوع من الكبرياء والاستعلاء، وهو ما يأباه الإنسان المعتزّ بنفسه، والذي يرفض إلا أن يكون سيّد الكون! لقد فكّ الإنسان المغاليق واقتحم المجاهيل، وهو بذلك أكبر من أن يكون عبدًا!

إنّ الإلٰه الرحيم، الودود، يجب ألّا يتكبّر على خلقه؛ فإنّ الحب نقيض الكبرياء وقرين التواضع، فمن أحبّ مخلوقاته، فعليه أن يكون معهم سواءً في كلّ شيء!

قلتُ: هذه أضغاث أوهام، لأسباب، منها:

أولًا: إنكار صفة الكبرياء الإلٰهي سببه الخفي هو الكبرياء البشري:

أصل الاعتراض ليس إنكارَ الكبرياء الإلٰهي كونه لا

يليق بحقيقة الألوهية، أو أنّه مظهر نقص في الكمال المطلق للخالق، وإنّما هو محاولة انتزاع هذا الكبرياء ونسبته إلى الإنسان؛ فالإنسان بإنكاره الكبرياء الإلٰهي، يتلّفع بكبرياء بشريّ متألّه؛ إذ هو سيّد الكون الذي لا يُعلى عليه قدرًا ولا أمرًا!

وعندما يزعم الإنسان أنه أصبح اليوم سيّد الكون لأنه كشف عددًا من قوانين الطبيعة، واستطاع بذلك صناعة الطائرات والصواريخ، فجوابه أنّ الإنسان لم يصنع شيئًا من عدم، ولم يخترق هذا الوجود إلى «غيره»، وإنما مجد الإنسان المعاصر لا يخرج عن حقيقة أنه كشف عن شيء من عظمة خلق الله. إنّ آخر ما انتهى إليه العقل البشري أنه قرأ بعض الكلمات في سِفر العالم قراءة صحيحة. وقد كان عليه لذلك أن يزداد تواضعًا، وإدراكًا لعظيم خلق الكون وخالقه.

إنّ العلم الحق يزيدنا وعيًا بجهلنا؛ إذ ندرك أنّ أسئلتنا التي تحتاج أجوبةً تتعاظمُ، كما تزداد صورة الكون المخلوق تعقيدًا مع كلّ فتح علمي، وهو ما يزيدنا معرفة بكمال علم الله وعظيم جهلنا. وفي الآفاق الرحبة للعلم يصغر الإنسان دائمًا وتنكمش في عينه «الأنا» لترتدّ إلى حالها الأوّل، ويزداد الوعي بتعاظم عظمة الله ـ سبحانه ـ في القلوب والبصائر.

ثانيًا: ما هي العلاقة اللائقة بين الإلٰه والعبد؟ التفاضل أم النديّة؟:

إذا أنكر المعترض على الربّ ـ سبحانه ـ حقّه في أن يُعبد، فهو بذلك يضمر في نفسه شعورًا بالنديّة بينه وبين الخالق؛ إذ الإنسان يقرّ عادة بتفاضل الحقوق عند تفاضل المقامات بين الناس، فهو يقدّم العالم والمخترع والمحقّق ويبجّله، ويرى الذين بذلوا أعمارهم وجهدهم في نصرة معاني العدالة والكرامة حقيقين بالتكريم والتعظيم والتقديم، ولا يرى في ذلك غضاضة أو حطًّا من قدرِ من لم يدانوهم في القدرة أو العطاء. **فالتفاضل في المقامات أثر طبيعي وحتمٌ للتفاضل في الملكات والعطاءات**، فكيف ـ إذن ـ يستبيح عقل نزيه مساواة المملوك المعدم بمالك الملك؟!

أصل الإشكال ـ فيما يبدو لي ـ أنّ الإيمان البارد بعظمة الخالق، إيمان تجري ألفاظه على اللسان، لكنّه لم يخرج من قلب متفكّر، فإنّ من يطلق لناظريه عنان السياحة في هذا الكون العظيم، الأنيق، الباهر، المفرح، سيدرك عظمة الجليل، وأنّه الأحق بالحمد والشكر، وأنّه الأوحد الحقيق بأن يُعبد حبًّا ورهبة.

ما الإنسان، ما الأرض، بل ما المجرّة في ملك الله؟! لاشيء! فلِمَ تستعظم النفس أن يكون العظيم عظيمًا؟! إنّ

أرضنا في هذا الكون المهيب لا تساوي حبّة رمل في شاطئ ممتد طويل، فالشمس أكبر منها مليونًا وثلاثمائة ألف مرة، وحجم الأرض مقارنة بحجم درب التبانة كحبّة رمل واحدة في صحراء قطرها خمسة ملايين ميل![1] فكيف إذن بحجمها من الكون بأكمله؟! وهل لحبّة الرمل أو للذرة أن تعلن نفسها قِبلة للوجود ومهرعًا للحياة؟!

قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٣-٦٧].

إنّ عجبنا يجب ألّا ينصرف إلى طلب العظيم منّا أن نعبده، وإنّما أن **يقبل منّا العظيم ضعيف أعمالنا ـ مهما عظمت ـ، ويراها شيئًا حقيقًا بالقبول**. إنّ العجب هو أن يرضى العظيم أن ننشئ معه علاقة، نكون نحن طرفها الثاني.

---

(١) ٦,٤×١٠^١٧ كِم هو قطر درب التبانة في مقابل قطر الأرض الذي يبلغ ١٢٥٧٦ كم.

ثالثًا: هل تتعارض صفة الحب مع صفة الكبرياء ـ النصرانية نموذجًا:

كتب اللاهوتيون النصارى كثيرًا في صفة الحبّ الإلٰهي والتواضع الربوبي حتّى فدى «الآب» البشرية الفاسدة بابنه الإلٰه، إذ أسلمه إلى الموت العنيف على صلبان الروم. غير أنّهم وجدوا أنفسهم أمام ثنائية متنافية: تواضع الإلٰه بتأنّسه وموته الخَلاصيّ من جهة، وطلبه من خلقه عبادته، وما يثبته ذلك من علوّه وتكبّره من جهة أخرى. وقد أرهقوا أنفسهم في جدليات أكروباتية للتخلّص من حقيقة الكبرياء الإلٰهي. وليس ذاك منهم بعجيب؛ فقد أنزلوا الربّ من سمائه، ثم علّقوه على الصليب، وأدخلوه القبر، ثم جادوا عليه بالخروج من القبر قبل أن يرتفع إلى السماء.

لا يجد المسلم حرجًا في الجمع بين محبّة الله لخلقه ومحبّتهم له، من جهة، وكبريائه ـ سبحانه ـ من جهة أخرى. فالله سبحانه هو القائل: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**»[1]. فهو سبحانه متكبّرٌ بحق، لعظيم جلاله؛ إذ له ـ سبحانه ـ كلّ شيء، ومحبٌّ بحقّ، لأنّه جاد علينا بحبّه، ونحن أدنى قدرًا من هذا الفضل، فالله ـ سبحانه ـ، متكبّر بعدل، ومحبٌ بفضل. ولا

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، (ح/٦٨٤٦).

يمكن أن ننشئ بين كبريائه وحبّه ـ سبحانه ـ تضادًّا إلا بعد أن «يُؤنسن» الإنسان الإلٰه. فإذا فعل ذلك ظهر التعارض بين الكبرياء والحبّ؛ إذ المتكبّر في عالم البشر لا يكون محبًّا بصدق، والمحبّ لا يكون متكبرًا بحقّ.

إنّ الكبر قبيح بالإنسان لأنّه ليس للإنسان فيه حق، وليس لأنّ الكبر منكر في ذاته؛ فالناس ينكرون على من يمشي بعجب في الأرض أنه لا يفضل الناس بشيء؛ فهو من التراب وإلى التراب، وليس ذاك بسارٍ على معنى الربوبية التي استجمعت الكمالات.

إنّ معرفتنا بكبرياء الربّ، تزيدنا ثقة فيه، وتوكّلًا عليه، وإدراكًا للحدّ الفاصل بين الضعف والقوة، والفقر والغنى. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣]. فهو السلام والمتكبر في آن واحد، فسلامه لا يتعارض مع تكبّره، وإنما السلام والتكبّر أثر لكماله، وفي كماله يجد المؤمن راحته وأمله وسكينته. ولا يَنشأ التضاد بين الكبرياء والسلام إلا إذا ادُّعيا في البشر.

إنّنا لن نعرف حقيقة الربّ الخالق حتى نعرف مقامه، ولن نعرف مقامه حتى ندرك بحكمةٍ ووعيٍ الفارقَ بين العبد والبارئ، ولن تستقرّ في عقولنا حقيقة هذا الوعي حتّى نعي

أنّنا لاشيء إلّا بالله، بفعله العظيم وُجدنا، وإليه راجعون. هو ـ سبحانه ـ الذي بيده الأمر كلّه، ولا حول لنا ولا قوّة. وإذا كان الواقع كذلك، وجب الإقرار أنّ لله وحده الكبرياء؛ إذ له العظمة، وأنّ على البشر الخضوع والطاعة لأنّ ذاك مقامهم الذي يليق بهم وبه يكونون ما هم عليه حقيقةً.

* * *

خلاصة الكلام.. العبادة واجب، وحاجة، ونعمة... واجبٌ لأنّ الربّ الكامل يستحقّ ـ ضرورةً ـ العبادة.. وحاجةٌ لأنّ النفس تعتلّ إن لم تشرق عليها رحمات الاتّصال بالملك الكريم.. ونعمةٌ لأنّ العبادة في جوهرها ظلّ ظليل تتفيّأ النفس جنانه.

وذاك الذي لا يعبد الإلٰه الحقّ تائه لا يهتدي.. عطشان لا يرتوي.. تقتله الحيرة ويغتاله الضيق في عالم متراحب الأرجاء.. ولن يتنسّم السعادة إلّا في عُرف العبادة.. فالعبادة هي الحياة الحقّة!

أزح العبادة من حياتنا.. تنحر القلوب في صدورنا!

كلمة في الختام

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].